

للأدب والتاريخ

مصطفى صادق الرافعي

١٨٨٠ - ١٩٣٧

للأستاذ محمد سعيد العريان

- ٢٦ -

وحى الأربعين

أصدر العقاد ديوانه « وحى الأربعين » في سنة ١٩٣٣ ؛
والسياسة المصرية يومئذ تسير في طريق موج ، وحكومة صدق
باشا تمكن لنفسها بالحديد والنار ، و « الوند » ومن ورائه الأمة
كلها يجاهد حكم الفرد ويكافح للخلاص ، والعقاد يومئذ هو
كاتب الوفد الأول ، يكتب المقالة السياسية قترن رنيناً ويلقنها
آلاف القراء بلهفة وشوق في كل مدينة وكل قرية ؛ فلاحظ أن
يكون العقاد بذلك عند عامة القراء هو أبلغ من كتب وأشعر من
نظم ، حتى ليؤول أمره من بعد إلى أن ينحله الدكتور طه حسين
بك الوفدي المتحمس ، لقب أمير الشعراء ، تعلقاً للشعب وزولاً
على هواه ... !

ولقد يكون العقاد يومئذ على حقيقته هو سيد الكتاب
وأمر الشعراء أو لا يكون ؛ ولكن هذه هي كانت منزلته عند
الشعب يومئذ ؛ فلا يعاديه أحد إلا كارتد - عدو الأمة ، ولا
يمرض له أحد بالنقد في أي منشأته الأدبية أو السياسية إلا كان
في رأى الشعب « دسيسة » وطنية أو من ذمة رجعية ...

هذه هي كانت الحقيقة في تلك الحقبة من التاريخ التي اترج
فيها الأدب بالسياسة امتزاجاً جعل طائفة كريمة من الأدباء
يؤثرون الصمت واعتزال الأدب على أن يزولوا بأنفسهم إلى معترك
لا يعرفون أين تبلغ بهم عواقبه . ولكن الرافعي رجل - كان -
لا يعرف السياسة ولا يخضع لمؤثراتها ؛ فهو لا يعتبر إلا مذهبه
في الأدب وطريقته ؛ وسواء عنده أكل رأيه هو رأى
الجماعة أم لا يكون ، ما دام ماضياً على طريقته ونهجه . ولقد
قدمت القول بأن الرافعي كان يتربص بالعقاد منذ قريب لينزل إليه

في معركة حاسمة تنفع غلته وتبرى ذات صدره ، فما إن تهيأت له
الأسباب بصدور « وحى الأربعين » حتى تحفز للمراك . وكان
ما بين العقاد ومخلوف هو السبب المباشر الذي ألهم حمية الرافعي
فتزل إلى الميدان مستكلاً أهبطه مزوداً بسلاحه ، غير مكترث
بما قد يناله من غضب الآلاف من القراء الذين يقدسون العقاد
الكاتب تقديساً أعني فلا يفرقون بين العقاد السياسي والعقاد
الأدب ... !

وأرسل الرافعي يستدعيني إليه ذات مساء ، فرحت إليه بعد
الشاء بقليل ؛ فإذا هو جالس إلى مكتبه ، وعلى مقربة منه « وحى
الأربعين » وإن عليه لشوباً أحر في لون عرف الديك ، وفي عينيه
فتور وضعف ينبئ عن السهر والجهد العميق ؛ فإنه يبدو في
جلسه ذلك كأنه عائد لساعته من معركة حمراء ... !

قال : « لقد فرغت من قراءة الديوان منذ قليل ، وإن لي فيه
رأياً . فهل تساهرنى الليلة حتى أملي عليك ما أعددت في نقده ؟ »
كانت هذه أول مرة يملى الرافعي عليّ فيها من مقالاته ؛
فكانت فرصة سميكة لي ، أشهد فيها الرافعي حين يلقى الوحي ،
وأحبه في سبحاته الفكرية يقتنص شوارد الفكر وأوابد المعاني .
وكانت فرصة - منيدة له : أن وجد يداً غير يده تحمل له القلم حين
يكتب ليفرغ لنفسه ، ويخلو بفكره ؛ وما نمود قبلها أن يكتب
وفي مجلسه إنسان . وإن أثقل شيء عليه أن يكتب بيده ، ولكن
أقل من ذلك عليه أن يعرف أن عينا تلاحظه وهو يكتب ، فما
زال يكتب لنفسه منذ بدأ متبرماً بهذه المهمة ، ضيق الصدر بما
ينزل في الكتابة من جهد . وإن خطه لأردأ خط قرأت في
البرية ... حتى اصطفتاني لهذا الواجب ، فلزمته ثلاث سنين
لا يهم بكتابة مقال إلا دعاني لجليه عليّ ، حتى انتقلت من طنطا
فداد إلى ما كان من عاداته : يملى على نفسه ويكتب لنفسه ، ولم
يسترح إلى كاتب بعدى يشركه في جلوة الوحي وخلوة الكتابة !

وجلس فأملئ عليّ مقاله في نقد « وحى الأربعين » ، من
قصاصات في يده لا يزيد إحداها على قدر الكف ، فما فرغ من
الاملاء حتى أذن الفجر ، وحتى كانت هذه القصاصات بضعاً
وعشرين صفحة كبيرة ، تشغل بضعة عشر نهراً من جريدة البلاغ .

وكانت ليلة تحملت فيها من الجهد والمشقة ما لم أتحمّل في ليلة غيرها
فقممت منهوك القوة عيَّان ، وقام الرافعي في مثل نشاط الشاب في
عنفوانه ، كما ما كان عليه عبء فرماه عن كتفيه ... !

وكان بين البلاغ والمقاد خصام ، وكان بينه وبين الرافعي
مودّة ، فما كادت تصل إليه مقالة الرافعي في البريد المستعجل ظهر
ذلك اليوم ، حتّى أعلن عنها وبشر القراء أن ينشرها في غد ...
ومشلت من البلاغ ثلاث صفحات في يومين ... وكان تقدماً سرّاً
حامياً اجتمع فيه فن الرافعي ، ونورة نفسه ، وحنّة طبعه ، وحرارة
بعضائه ، ولكنه كان تقدماً مزهاً عن العيب

أستطيع أن أقول ويقول مني كثير من أدباء العربية : إن
هذه المقالة هي خير ما كتب الرافعي في نقد الشعر ، وأقربها إلى
المثال الصحيح ، لولا هفوات قليلة يعفيه من تبسّطها أنه إنسان !
من قرأ « على السفود » فعابه على الرافعي وأنزله غير ما كان
ينزله من نفسه ، فليقرأ مقال الرافعي في نقد « وحى الأربعين »
ليرى الرأى المجرّد في شعر الأستاذ المقاد عند الرافعي ...

ومضى يوم واحد ، وظهرت صحيفة الثلاثاء من جريدة الجهاد
وفيه رد المقاد على الرافعي ، وقد نفذ إليه من باب لم يحسب
الرافعي حسابه ، فتغير وجه الحق ، ودارت المركة حول محور
جديد ...

كان عنوان مقالة المقاد « أصنام الأدب » فيها أذكر ، وكان
مدار القول فيها هو الطعن على رجلين : هما إسماعيل مظهر ،
والمهزار الأصم مصطفى صادق الرافعي . وكان أكثرها سباباً
وشتيمة وأقلها في الرد والدفاع . على أن المقاد لم يردّ رأى الرافعي
فيما أخذ عليه من مأخذ إلا في مواضع قليلة ، وترك الرد في أكثر
ما عاب عليه الرافعي ، مستعيفاً عن الرد بالشم والسباب ... !

وإذا كان السبب مفهوماً في طعن المقاد على الرافعي وشتيمة
إياه ، فأى سبب حمل المقاد على أن يشرك الأستاذ إسماعيل مظهر
مع الرافعي فيما وجّه إليه من الشتم والتهمة ؟

جواب ذلك يفهمه من يعرف أن الأستاذ إسماعيل مظهر
صاحب العصور ، هو طابع كتاب « على السفود » ونشره
ومروّجه . أفنستطيع أن نحكم من هذا بأن المقاد لم يكن يعنى
الرد على مقال الرافعي الأخير وحده ؛ ولكنه وجدها فرصة

لتصفية الحساب القديم كله بينه وبين الرافعي وصاحبه الذى أغراه
على كتابة « على السفود »

وكان الباب الذى نفذ منه المقاد في الطعن على الرافعي ، هو
اتهامه في وطنيته ، وإيهام قرأه بأن الرافعي لم يكن لينقده إلا لأنه
هو المقاد السياسى الوفدى عدو الحكومة المتسلطة على الناس
بالحديد والنار ! وحسبك بها من تهمة حين يقولها المقاد !

— إن للمقاد مفاجآت عجيبة في النقد ، تمثل المقاد الكاتب
المرن المحتال في أساليب السياسة ، أكثر مما تمثله ناقداً محيطاً
يدفع الرأى بالرأى والبرهان بالبرهان :

وقرأت مقالة المقاد في الرد على الرافعي ، فوجدت أسلوباً
في الرد لم أكن أنتظره ، يؤلم ولا يفهم ، ويقابل الجرح بالجرح
لا بالعلاج . فما فرغت من قراءة المقال حتى تمثل لى الرافعي صرّيد
الوجه من غيظ وغضب ، مزبد الشدقين من حنق وانفعال ؛
فسرني أن أسى إليه قبل ميمادى لأراه في غيظه وحنقه وانفعاله ،
فانهزت ساعة فراغ في الظهر ، فضيت إليه في (المحكمة) ؛ فما

— كاد يرانى مقبلاً عليه حتى هتب بي وهو يتسم ابتسامة السرور
ثم قال : « أقرأت مقالة المقاد ؟ » قلت : « نعم » قال : « ماذا
رأيت فيها ؟ » قلت : « لقد كان شديداً مؤلماً ! » فضحك وقال :
« والله ما رأيت كالليوم ! لقد ضحككت حتى وجهنى قلبى من شدة
الضحك ... إنه لم يكتب شيئاً ، ولم يرد على شيء ؛ إن سبابه
وشتمه لن يجعله عند القراء شاعراً كما يشتهى أن يكون ، وإن
حسب أنه به يكسب المركة . لقد حق عليه ما قلت فيه ، وإنه
ليعترف . إن فراده من الرد إلى السباب والشتيمة ليس إلا اعترافاً
بالمعجز ... »

— قلت : « إذن فأنت لا تنوى الرد ؟ »
قال : « وأى شيء تراه يستحق الرد فيما كتب ؟ »
قلت : « ولكن القراء لن يفهموا سكوتك على وجهه ،
ولن يسموه إلا انسحاباً من المركة ... ! أفترضى أن يقال
عنه ... ؟ »

وبدا على الرافعي كأنه اقتنع ، وهاجته كلانى مرة أخرى إلى
النضال . وممذرة ثانية إلى الأستاذ المقاد !
إن مركة تدور رحاها بين المقاد والرافعي جديدة بأن

وكان مقاله عن العقاد في كوكب الشرق، وكليته في الرسالة سبباً في أن يدعو الأستاذ توفيق دياب ليحرر في الجهاد بأجر كبير؛ ولكن لم يتم بينهما اتفاق

ولم تكن تسنح للرافعي سانحة لميظ العقاد إلا انتهزها، فما كتب الرافعي عن شاعر من الشعراء بعد ذلك إلا جعل نصف كلامه تعريضاً بشعر العقاد. ومن ذلك ما كتب عن الشاعر المهندس على محمود طه في المقطع، وما نشره عن الشاعر محمود أبو الوفاء في الرسالة، ومقالته «بعد شوق» معروفة لقراء الرسالة عامة؛ وكلها تعريض بشعر العقاد الذي نحله الدكتور طه حسين إمارة الشعر في يوم من الأيام بعد شوق؛

والعداوة بين الرافعي والعقاد من العداوات المشهورة بين أدباء الجيل، ولها أثر أي أثر فيما أنتج كل من الأدبيين الكبيرين في أدب الوصف؛ ولا تداني هذه العداوة في الشهرة إلا العداوة بين الرافعي وطه حسين

وأحسب أنه كان في الإمكان أن يجتمع العقاد والرافعي في تحرير الرسالة لولا ما كان بينهما من خلاف وعداوة. قال في تحرير الأستاذ الزيات مرة منذ عامين: «وددت لو يكتب العقاد في الرسالة؛ ولكننا بمعنى من دعوته إلى ذلك أنني لا أستطيع أن أنشر له وللرافعي في عدد واحد»

قلت: «فما يمنع؟»

قال: «أنت تعرف أخلاق الرافعي، وأنا أعرف أخلاق العقاد، وإن لكل منهما اعتداداً بنفسه بازاء صاحبه، فأى المقالين أقدم وأيهما أؤخر في ترتيب النشر؟ إن تقديم مقال على مقال ليس شيئاً ذا بال، ولكنه بين الرافعي والعقاد له شأن أي شأن!»

وظل الأستاذ الزيات معنيّاً بهذا الأمر، حريصاً على أن يجمع بين الأدبيين الكبيرين في مجلته، وهو يلتمس السبيل إلى ذلك فلا يوفق، حتى مات الرافعي فأباحت المشكلة؛ ودخل العقاد، ولكن بعد ما خرج الرافعي؛

رحم الله الراحل، ونفع بالباقي؛

محمد سعيد العريانه .

يحتفل لها الأدباء وأن تنال من اهتمامهم أوفي نصيب، وإن لهم فيها لثأراً ولذة وفائدة. وما كان لي أن أفنع وقد هجعت هذه المعركة بما فيها من متاع ولذة وفائدة بأن تنتهي من أول شوط؛ وقال لي الرافعي: «فهل توافيني الليلة لأملئ عليك؟»

فواعدته وذهبت إليه في المساء، فأملئ على فصلان من نسخته الخاصة لكليلة ودمنة، بعنوان «الثور والجزار والسكين»؛ ثم أتمه مقالاً في الرد على العقاد. وكان فصلاً قاسياً عنيفاً، ليس من مذهب المقال الأول ولا نهجه، إذ لم يكن المقصود به النقد وحسب، بل الرد والسخرية والإيلام، ثم قطع السبيل وتدعيم الدليل وتقرير المعنى فيما قدّم من مواضع النقد

ثم رد العقاد ليعلم انسحابه من المعركة، شاكرًا للذين أيدوه، معتذراً عن عدم الاستمرار في مناقشة دعوى الرافعي؛ واستمر الرافعي يكتب حتى فرغ...

وكان النصر للرافعي عند طائفة، ولكنه خسر عطف الآلاف من أصدقاء العقاد الكاتب الوطني الكبير، إذ لم يروا عداوة الرافعي له في الأدب إلا دسيسة سياسية من خصوم العقاد؛

وانتهت المعركة الأخيرة بين الرافعي والعقاد، ولكن الرافعي لم يقتنع بما نال من النصر عند الصفوة من القراء الذين يفرقون بين الأدب والسياسة، إذ كان على يقين أنه وإن كانت له الغلبة، قد خسر أكثر الطائفتين من قرائه لأنهم على مذهب العقاد السياسي، فظل منيظاً محتقاً إلى حين...

ومضت سنتان، وتقلبت السياسة المصرية من تقلباتها، فإذا العقاد الذي كان كاتب الوفد الأول، خارج على الوفد، بظمن عليه وعلى رئيسه؛ وأنصار الوفد ما يزالون إلى يومئذ أكثر الأمة... ووجد الرافعي فرصة سانحة لينتقم، وليستخدم السياسة في النيل من خصمه في الأدب، فيكيل له صاعاً بصاع، ويحاربه بمثل سلاحه؛ فكتب مقالاً بغير توقيع في كوكب الشرق، جريدة الوفد، بعنوان: «أحق الدولة»؛ وكان مقالاً له رنين وصدى...

ونشر في (الرسالة) يومئذ كلمات تحت عنوان «كلمة وكليمة» عرض فيها بالعقاد الخارج على الوفد تعريضاً أليماً يؤذيه، لم ينتبه له إلا القليل